الماء ودوره فى الحياة

الفلاحية والصناعية والمدنية بالمغرب الاقصى

نظرة اجمالية - طرق موارد الماء - الانتفاع بالماء - الماء والحياة الفلاحية - الماء والحياة الصناعية الماء والحياة المدنية - خاتمة

نظرة اجمالية

ان الماء عامل من عوامل الحياة الحيوانية والنباتية لا تستغنى عنه بوجه من الوجوه وأى دليل على ذلك أقوى من وجوده فى تركيب جميع الأحياء بنسبة لا تدانيه فيها أى مادة اخرى فقد يكون فى بعض الخضر كالبطيخ والخس ٩٥ فى المائة من وزنها وكما تحيى النباتات والحيوانات البسيطة في وسط الماء - منها من لا ترى الهواء بالكلية - كذلك الحجيرات التى يتركب من مجموعها جسم الحيوانات والنباتات الراقية تعيش داخل الجسم فى مائع لا غنى لها عنه بالمرة ومتى قلت كمية ذلك المائع الداخلى شحبت الاجسام و بدأت تيبس وتعطلت الحركات والمبادلات الحيوية فيهاولا تلبث أن تقف نهائيا وتفقد الاجسام حياتها . ذلك ان الماء هو الذى يذيب المواد المغذية و يحملها الى الحجيرات الحية وكذلك هوالذى يذيب المواد الفاضلة عن الغذاء او المتحولة بعده و يقودها نحو خارج الجسم اما بقنوات خاصة واما بطريق التبخر

فالحيوانات والنباتات تحتاج الى شرب الماء او امتصاصه بشتى الوسائل التى خصصت بها الطبيعة كل نوع منها أما البشر والحيوانات الملوفة فتتوقف على شربه صرفا والتهامه مع بعض المأكولات وأما النباتات فانها تمتصه بجذورها من الارض ولا بد لنموها من امتصاص قدر كبير منه لهذا نرى ان اهم شيء فى البلادات القليلة الماء الاعتناء بوجود ما يسد عوز النبات منه لا الاعتناء بوجود الطينة المناسبة لانك تستطيع تحويل تركيب الارض الكيماوى بالخدمات المختلفة والاسمدة اللازمة ولكن ما عساك تصنع بالتربة الجيدة لا ماء فيها

واذا كانت حياة ابن آدم وحياة الحيوانات التى ألفها واستخدمها لمصلحته وحياة النباتات التى تغذيه وتغذى حيواناته وتكسيه او تكسبه رزقا كلها متوقفة على الماء فلا غرابة من ان يكون الماء هو المسيطر الاعظم على الحياة فى العالم فوجوده بقدر كاف شرط ضرورى لسكنى البلاد وعمارتها وازدهار الفلاحة والصناعة فيها وسعادة اهلها

على أن الانسان لا يقنع من الماء بما ينقع غلته و يدخل فى تركيب جسمه كباقى الحيوانات او كالنباتات بل يتطلب أكثر من ذلك فانه يحتاج قدراً من الماء لنظافته ونظافة ثيابه وأدواته ومنزله كما يحتاج قدراً من الماء لايجاد القوى الكهربائية وللقيام بكثير من الصنائع التى لا يمكن ان يستغنى عنها ولا أن تستغنى هى بدورها عن الماء

هذا و بلادات المعمورة تختلف بعضها عن بعض أشد الاختلاف فيما يرجع لكمية الماء التى خصصها الله بها فمن البلادات من ميزها بكثرة الامطار والانهار والعيون كجل البلادات الاوربية حيث صارت مسألة الماء والتنقيب عنه مهملة لتوفره بل صار اهتمام سكانها مقتصراً على حسن استعماله وفى بعض الاحيان على اتقاء الاخطار الناتجة عن كثرته كالفيضان وما يتبعه من تخريب وتدمير واتلاف

وقد اوجد الله المغرب الاقصى بوضعيته الجغرافية و بصورة هيكله الطبيعية فى منطقة موارد الماء فيها قليلة للغاية ولهذا كان الاهتمام بوجود الماء اولا ثم بحسن استعماله وعدم تبديره ثانيا من الشروط الاولية للحياة فى هذه البلاد

فالعمارات البشرية لا تتأسس الا قرب منابع الماء او سيوله لان الماء هو الذى يضمن الحياة للنباتات والحيوانات واذا خرجت عن

دائرات الماء لا تجد الا السكون والخمود كما أن منابع الماء في الصحراء هي التي أنشأت الواحات الظليلة وهي التي خططت للقوافل طريقها في البيداء المحرقة . وان امتلاك منابع الماء في البلاد اليابسة كاف للسيطرة على فلاحتها وتجارتها وسياستها سيطرة تامة

السيد عمر ابن عبد الجليل

لهذا ترى منذ القدم تقسيم موارد المياه وامتلاكها - سواء المعدة للسقي او المعدة للحياة البشرية - مضبوطا ضبطاً لا مزيد عليه وفي بعض النواحي التي يقل فيها هطول الامطار ولكن توجد فيها مياه للسقي تكاد لا تشترى الارض ولكنك تشترى الماء . أما الارض التي لاحظ لها من ماء السقي فلا قيمة لها في تلك النواحي رغما عن المحصولات الفلاحية العجيبة التي تنتجها في السنين الممطرة . ولهذا أيضا ترى غيرة الناس على مائهم ومقاومتهم اى سلطة تحاول مس حقوقهم المقدسة فيه وكم مرة وقفوا - من اجل الماء - في وجه الملوك الاقدمين رغم استبدادهم وعتوهم . ألا يدافعون عن حياتهم وعن مورد رزقهم ؟

ان كل ما بيناه آنفا من اهتمام أهل البلادات اليابسة بالتحصيل على المـاء وصيانته لا يختص بالمغرب الاقصى وحده بل يعم كل الاقطار التي تضاهيه او تقارب به من هذه الناحية وقد كان هذا الاهتمام منذ كانت الحياة .

فني جزيرة العرب كان العمالقة باليمن يبنون السدود ويدخرون المياه و يستعملونها استعمالا منتجا ومن هذا القبيل اعمال الرومان بسوريا و بتونس وقسم من الجزائر وأعمال الفينيقيين والقرطاجنيين وأعمال العراقيين في الدولة العباسية حين استطاعوا توزيع دجلة والفرات الى جداول لسقي سهول ما بين النهرين ومن هذا القبيل أعمال العرب بسوريا حين تمموا أعمال الرومان واهتموا بنهر بردى لسقي الغوطة وكذلك الاتراك فانهم احيوا اعمال الرومان بالجزائر واتقنوها حتى تبعهم في بعضها الفرنسيون بعد الاحتلال

ولا تزال في كل هذه البلادات آثار الاقنية والجداول والسدود ناطقة بعظمة اعمال الاقدمين ودرجة اتقانها و بما وصلوا اليه من مدنية ورقي كما أن كثيراً من تلك الاثار في شتى البلدان لا يتطلب الا اصلاحات وتحسينات ليقوم بوظيفه بعد ان اهمل قرون عديدة ولا نريد أن ننسى بهذه المناسبة ماقام به أجدادنا من اعمال السقي بالاندلس وما خلفوه من بعدهم فاحسن الاسبان استخدامه ولا زالوا يستخدمونه الى الان كما لا نريد أن نهمل ذكر ملك الانهار وسيدها أعني نهر النيل المبارك الذي أفاض نعمه على صحراء مصر فصيرها بكرمه جنة خصبة وأغدق على أهلها الثروة وأفاض عليهم السعادة حتى الهوه وقدموا له الضحايا البشرية شكراً للنعيم

موارد الماء بالمغرب الاقصى

يجب علينا الاعتراف بأن المغرب ليس من البلدان التي قترت عليها الطبيعة موارد الماء تقتيرا كبيراً فهو يمتاز بكثير عن المغرب الاوسط والمغرب الادنى امتيازاً واضحا سينجلي للقارئ فيما بعد

الماء الذي تنتفع به ثلاثة مصادر . الامطار المنصبة على الحقول والمياه الجارية في الاودية والمنبثقة من العيون والمياه المذخرة تحت سطح الارض على أن المياه الجارية بالاودية تاتي من العيون او من ذوبان الجليد الكامن للجبال والجليد الكامن للجبال ناتج عن تجمد ماء الامطار . والعيون المنبثقة والمياه المذخرة تحت سطح الارض ناتجان عن تسرب ماء الامطار بين ذرات الارض ونزوله الى بطن

الارض فهناك اما أن يسير تحت الثرى حتى يجد منفذا منخفضا بالنسبة لمجراه ينخرج منه عينا متدفقة للهواء واما أن يبقى مختبئاً فى بطن الارض حتى يستخرج بطريق حفر الابار او غيرها

وهكذا نرى أن مسألة الماء وقلته وكثرته منحصرة لا محالة فى مسألة الامطار وقلتها وكثرتها

ان الرياح التى تاتينا بالامطار هى التى تهب من جهة الخلف تمر على البحر وتحمل معها الرطوبة اللازمة المكونة للسحاب ثم تدخل لارضنا المباركة فتصطدم بالجبال المرتفعة حيث البرد كاف لتقطر الماء الذى فى السحاب فيسقط مزنا نافعا على السهول القريبة من الجبال وعلى الجبال نفسها يسيل على سفوحها ويتجمد على قممها

والامطار لا تهطل على السهول التى ليس لها ارتفاع كبير عن سطح البحر ولو كانت قريبة من الشواطئ مثلما تهطل على السهول المرتفعة عن سطح البحر والمجاورة للجبال كالتى فى ناحية مكناس وفاس مثلا ففى تلك الناحيتين تهطل الامطار بكفاية وانتظام فتنزول الامطار متوقف اذن على شرطين جوهريين أولهما هبوب الرياح لتسوق السحاب من البحر وثانيهما مصادفة ذلك السحاب لدرجة من البرد كافية لتقطر مائه ونزوله من السماء فوجود السحاب فى السماء لا يكفى لنزول المطر ولا بد من البرد الكافى لتقطر الماء

وحيث ان البرد يزيد مع الارتفاع عن سطح البحر ترى المغرب الاوسط والمغرب الادنى التى يتراوح علو جبالها بين ٥٠٠ و ٢٥٠٠ متر اقل امطاراً من المغرب الاقصى حيث يصل بعض الجبال الى علو ٤٥٠٠ متر وأكثر وهذا سر من اسرار الميزة التى خص الله بها المغرب الاقصى من بين المغارب الثلاثة فمن جهة تنزل الامطار بالمغرب الاقصى أكثر من التى تنزل بالجزائر وتونس لأنها تجد جبالا اعلى وبرداً اشد ثم ان الجليد الذى يتكون فى جبال القطرين المجاورين لا يلبث فى الربيع أن يذوب ويجرى فى الاودية ولا يصل الصيف حتى تجف الاودية والانهار . أما بالمغرب الاقصى فتبقى الجبال الشاهقة متوجة بالجليد حتى يصل فصل الصيف وجل الاودية والانهار ان لم نقل كلها تستطيع السير بمائها وصبه فى البحر طول السنة بدون انقطاع

ثم ان السر الثانى فى تميز المغرب الاقصى عن جارتيه هو ارتفاع طول شواطئه البحرية بالنسبة لمساحته عن طول شواطئهما بالنسبة لمساحتهما فبينما الجزائر يحدها البحر من جهة الشمال فقط نجد المغرب الاقصى يحده من جهتي الشمال والخلف معا

والامطار التى تهطل بالمغرب الاقصى تتراوح بين ٢٠٠ و ٨٠٠ ميلمتر فى السنة حسب النواحى أعنى أن ارتفاعها على سطح الارض لو لم تتسرب ولم تجر ولم تتبخر يكون كذلك فأما السهول التى يقل ارتفاعها عن ١٠٠٠ متر بالنسبة لسطح البحر فلا ينزل فيها أكثر من ٤٠٠ ميلمتر فى السنة وكثير منها كناحية مراكش تكون فيها الامطار دون هذا التقدير بكثير وبمجرد ما يعلو ارتفاع الاماكن عن ١٠٠٠ متر تزداد الامطار وتصل فى بعض المحلات الى ٨٠٠ ميلمتر كما بيناعلى أن المغرب الشرقى لا يتمتع بأمطار غزيرة رغم ارتفاعه عن سطح البحر وذلك لحيلولة الجبال الشاهقة بينه وبين سحاب البحر الخلفى واستبدادها بالمزن النافع

واذا كانت الامطار فى الجزائر تقل كلما ابتعد الانسان من شاطئ البحر الشمالى وذهب الى الجنوب فانها بالمغرب تكثر كلما ابتعد من شاطئ البحر الخلفى وذهب الى القبلة وذلك بنسبة مواتية لارتفاع الاماكن عن سطح البحر فتصل منتهاها فى أعالى الجبال حيث يسقط ما يزيد على ٨٠٠ ميلمتر ثم بعد الجبال تقل الامطار عند الاتجاه نحو القبلة

ومن هذا يستنتج أن سهول الشاطئ وسهول المغرب الشرقى ولا تنزل المياه فيها بكفاية بينما سهول المغرب الاوسط وسهول المغرب الشمالى تحصل على ما يكفيها من الماء لسد عوز فلاحتها

وكيفما كان الحال وفى كل من المغارب الثلاثة لا تنزل الامطار الا من اواخر الخريف الى أوائل الربيع والسر فى ذلك أن الرياح الحاملة للسحاب اذا هبت فى اواخر الربيع او اثناء المصيف وجدت الجو حاراً ولم يستطع ماؤها التقطر والنزول

وملخص القول ان الامطار تنزل فى الفصل الذى تكون الحرارة قليلة فيه ولا يصلح لنمو النباتات بينما لا تنزل فى المصيف حيث تكون الحرارة متوفرة وكافية للنمو ولهذا كانت فلاحة النباتات

الصيفية غير ممكنة بافريقيا الشمالية بدون سقي وكذلك الاشجار والفواكه والخضر التي تحتاج الى قدر وافر من الماء في فصل المصيف ولهذا اقتصرت الفلاحة على النباتات التي يبتدئ دور نموها في اواخر الخريف وينتهي في أواخر الربيع قبل وقت الجفاف والبيبوسة وتلك النباتات هي القمح والشعير وما شاكلهما . أما الاشجار المالوفة فهي أيضا التي لا تحتاج الى الماء في المصيف كالزيتون والكرم وما شابههما وما عدى هذه النباتات وهذه الاشجار فالاشتغال بفلاحتها يتطلب استعمال السقي وذلك ما سنتكلم عنه فيما بعد على أن القمح والشعير يحتاجان أيضا في بعض السنين الى السقي اذا لم تنزل الامطار بكفاية في النواحي التي ألفت أن تقتنع فلاحتها بماء السماء وهما يحتاجان الى السقي دائما في بعض النواحي كسوس حيث قل أن ينزل المزن بقدر ضامن لنموها واثمارها

طرق الانتفاع بالماء

نظراً لقلة موارد الماء بالمغرب الاقصى ونظراً لاضطرار كثير من النواحي الى استعمال السقي توجد طرق عديدة لجمع الماء وصيانته والاحتفاظ به وتلك الطرق منها ما هو راجع الى ضبط الماء المدخر تحت سطح الأرض ومنها ما هو راجع الى ضبط الماء الجاري على وجه الارض

أما الاولى فمقتصرة على حفر الابار الا انه يوجد من الابار ما تحفر فيبقى الماء ساكنا في قعرها الى أن يخرج منها بالدلاء اوبالآلات الرافعة المشهورة وعمقها يزيد وينقص بحسب النواحي والاماكن . . . . والخطوط وكذلك قوة مائها وطعمه وصفاؤه وحلوه من المعادن والاملاح المذابة وقد حفرت الحكومة آباراً من هذا القبيل بالغرب وعبده ودكالة ومراكش ومهدت للناس ما استحق التمهيد منها

ومن الابار ما يندفق ماؤها بقوة وشدة نحو سطح الأرض بعد حفرها ولو بلغ عمقها ما بلغ ذلك الماء المندفق أتى من محل بعيد أعلى بكثير من محل البير وأنه لم يجد في طريقه منفذاً الى الهواء فلما حفرت البير ارتفع الماء بقوته الطبيعية المنجرة له من ارتفاع محل تسرب في الأرض عن محل خروجه منها وهذه المياه تكون عليها طبقة من الصخر هي التي تمنعها أثناء سيرها من الخروج الى مستوى الارض وهي التي يجب على البيار ثقبها وكثيراً ما تقذف الماء بالبيار المسكين نحو وجه الارض صريعا تحت قوى اندفاع الماء من البير التي حفرها وهذه الابار توجد بالصحراء وقد بنيت على جنباتها الواحات وغرس فيها النخيل والكروم

وهناك ملاحظة مهمة وهي أن حفر هذه الابار بكثرة في المحل الواحد يؤدي الى نضوب بعضها أوجلها فكم من واحة حولت عن مركزها القديم بكيلو مترات عديدة بعد حفر بير مرتفع عن بير الواحة ونضوب هذا الاخير من جراء ذلك وموت نخيل الواحة واضطرار سكانها الى مهاجرتها قاصدين منبع البير الجديد

ومن الابار نوع ثالث خاص ببعض النواحي كسوس حيث يكون الماء قريبا من سطح الارض ويكون سطح الارض منحرفا بعض الانحراف فتحفر البير ثم توخذ منها قناة يراعى في تخطيطها انحراف سطح الارض حتى تخرج القناة في محل مناسب يكون أدنى بقليل من علو البير فينفذ بهذه الطريقة البديعة ماء البير نحو الهواء يجري في الاقنية تحت السماء الزرقاء بعد أن مكث مسجونا في بطن الارض ما شاء الله . وكثيراً ما ترى أهل البلادات التي تستعمل هذه الابار يحفرون بيراً ثم ياخذون منها قناة نحو بير أخرى تكون أدنى من الاولى ثم ياخذون من الثانية قناة توجه نحو بير ثالثة تكون أدنى من الثانية وهكذا يعددون الابار يصب بعضها في بعض ليخرجوا في النهاية قدراً مهما من الماء يكون واديا اصطنعوه لأنفسهم ولمصلحتهم وهذه الابار بأقنيتها هي ما يسمونه الخطارات أو (الفكاكير) والاهالي يعرفونها ويتقنونها من قديم الزمان وليس فيما أتى به العلم الحديث تحسين يذكر فيما يتعلق بها

أما فيما يتعلق بالطرق الراجعة لضبط الماء الجاري على وجه الارض فيجب أن نعلم ان هذا الماء مركب من عيون وأنهار أما العيون فاما أن تكون ملكا لاربابها يستعملونها لمصالحهم ثم تنصب نحو الاودية والانهار واما أن تكون ملكا للدولة فتوخذ في المجاري الخاصة الى المدن ومحلات العمارة واما أن تترك الى حال سبيلها فتتكون منها الاودية والانهار باضافة ما يذوب من الجليد المتجمد

على سفوح الجبال وقممها

وعدد الانهار بالمغرب الاقصى متوفر ولله الحمد ولا تجف في المصيف كالانهار الجزائرية وأهمها نهر الملوية الذي يتصبب نحو البحر الابيض المتوسط ونهر سبو وما يضاف اليه من الاودية كالورغة ووادي بهت ونهر أبي رقراق وما اضيف اليه كوادي كرو و بعده وادي الملاح والنفيفخ و بعدهما نهر ام الربيع وما اضيف اليه من الاودية و بعده نهر تانسفت ونهر سوس وما اضيف اليهما من الاودية وهذه الانهار تتصبب نحو الاقيانوس الاطلنطبقي يزاد على ذلك عدد وافر من الاودية بالصحراء لا تصل الى البحر

ان الاهالي عرفوا كيف يستعملون العيون والاودية الصغيرة وكانوا ينحتون الاقنية في سفوح الجبال لسقي بعض المزروعات و بعض الاجنة ومن تلك الاقنية ما كان يخرج من الجبال و يذهب الى السهول لسقيها غير أن هذه الاعمال كانت تصدر عن اربابها دون أن يفكروا في برنامج عام لتوحيد الجهود وحفظ حقوق جميع الناس وضمانة استثمار الاعمال مع عدم الاخلال بالنظام

أما الان فحكومة الحماية تحاول ضبط جميع ذلك حتى تستعمل كل ما يمكن استعماله من المياه الجارية في الاودية والانهار لسقي كل ما يمكن سقيه من البلاد وللقيام بحاجات كل سكان المغرب بالحواضر والبوادي وحاجات مواشيهم وصناعاتهم

وغاية الحزم كما قيل أن لا تصل نقطة واحدة من مياه الداخل الى البحر قبل أن تنتفع بها البلاد خصوصا وهي تشكو قلة الامطار الا أن هذا الحزم لا يزال حلما يبعد أن نرى تصديقه عن قريب

على أن الحكومة قامت بمجهودات طائلة لا يستهان بها ولو لم يكن منها الا مشروع سد القنصرة الذي وصفناه في العدد الماضي لكفى

ان أمام الحكومة مسلكين للانتفاع بماء الاودية من جهة السقي

﴿ أولاً ﴾ بناء الاسداد لادخار مياه فصل الشتاء واستعمالها في الربيع والصيف لمزروعات منتجة خاصة كما تؤمل ذلك من سد القنصرة وأضرابه

﴿ ثانياً ﴾ بناء أقنية لتحريف مجارى الاودية واستعمال مياه تلك الاقنية لسقي الحقول والسهول

غير أن تحريف الوادي لا يأتيك الا بما فيه من ماء تستطيع السقي به في فصلي الشتاء والربيع اذا لم تنزل الامطار بكفاية أما في الصيف فلا تستطيع الانتفاع به لان سيل الوادي يكون ضعيفاً فأحرى الاقنية الواردة منه زد على ذلك أن استخدام هذه الاقنية يصعب جداً بعد هطول الامطار الغزيرة وعند فيضان المياه كما أنه من جهة اخرى اذا لم تهطل أمطار غزيرة يكون سيل الوادي ضعيفا والاقنية تبقى يابسة

وعلى أي حال فالظاهر ان أسداد الادخار أوفى بحاجات الفلاحة من تحريف مجارى الاودية و لانهار لولا ما يتطلبه بناؤهم من أموال باهضة تنوء بها ظهور الذين يؤدون الضرائب ولا يستخلصون لبعض المجورين اجوراً سائغة من بيت المال .

يتبع

سيدي سليمان — ٢٤ يوليوز ١٩٣٢

عمر بن عبد الجليل

صنعاء اليمن واليمن

اليمن الذي تنسب اليه صنعاء ولا ينسب اليها كله ينقسم الى سهول جرداء قاحلة على ساحل البحر الاحمر خصبة مريعة فيما بعد ذلك . وجبال بركانية تتسلسل على مسافة سبعين كيلو متر من البحر ثم النجد الفسيح الذي به مدائن حمير وقراها يعلو على سطح الماء بالفي متر وبعده ما يسميه الجغرافيون بالربع الخالي من الجزيرة العامر بثائار السبئيين

تمتاز هاته البلاد على غيرها من بلادات العرب بخصوبة أرضها وكثرة وديانها الذى منها وادى مور ميزاب تهامة الاعظم وميزاب اليمن الشرقى الذى يذكر التاريخ انه افضى الى سد مأرب وهو الذى كان يسقى الجنتين الى أرض السبئيين ويتحكم أهلها في المياه ومهارتهم فى عملية توجيهها واستعمالهم للسدود المحكمة تحجزها فى ارض

منازل من صنعاء اليمن

عمل التصاوير البارسية

صلبة من شأنها ان تحفظ الماء الى حين الاحتياج للانتفاع به مما جعلها فى طليعة البلاد التى تنتج المزروعات الدورية وتنبت الاشجار الباسقة وحدا الى اطلاق اسم (العرب الخضراء) عليها.

الاسم فى محله وليس اليمن من حيث منظره على صفحات الايام الغابرات بأقل نضارة وأضعف بهجة. دخل فى حوزة التاريخ بدخوله تحت حكم ملكه سبأ التى كانت مسيطرة على سائر السواحل الفيحاء وكافة هضاب تلك الارض ووهادها هناك . وبيدها جل تجارة المشرق تبعث فى البحار الى الاقطار الشاسعة المراكب الحافلة بالبضائع والعطور والحجارة الكريمة وبالاخص الى سوريا وغيرها من البلاد المتمدنة . سيدة الرمال بلقيس التى لازالت التواريخ تردد اسمها مقرونا الى اسم ملك عظيم ونبي كريم وتعدد لها من المئاثر والمفاخر ما كاد ان يجعلها في سماء الخيال .

ثم انكسر سد مأرب عاصمة بلقيس فانجلت القبائل عن تلك النواحى ذلك الانجلاء الفجاءى القوى الذى قلب ماهية جزيرة العرب ونقل الامر فيها الى سكان النجد من قبائل حمير وكهلان . وقد كانت حمير وكهلان فى قحطان بمنزلة ربيعة ومضر فى عدنان شعبان يتنافسان في الملك ويتنازعان السيادة فقسموا البلاد بينهم الى مخاليف ذكر ياقوت منها ستين مخلافا او تزيد كلها متوازية متقاربة غير ان مخلاف صنعاء كان اضخم هذه المخاليف واعظمها وكان رؤساؤه خاصة يلقبون بالملوك وحدهم دون غيرهم من الرؤساء وذكر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ فى كتابه تاريخ الرسل والملوك ان ملوك اليمن بصنعاء كان ملكهم غير متصل وانما يكون للواحد منهم بعد الواحد وبينهم الفترات الطويلة التى لم يقف على مقاديرها المؤرخون وهنا أيضاً يسطر الزمان لهاته البلاد من المجد ما ابهر بعض المؤرخين مثل المسعودى وغيره حتى ادام ذلك الى الدخول بالتبابعة وعظمة سلطانهم فى عالم الخرافات

يذكر التاريخ أيضاً لليمن وقد كان على دين المسيح عليه

السلام اختلاطه بالامم المجاورة له مثل الاحباش الذين ملكوه مدة والفرس الذين تاثر بمدنيتهم تأثراً محسوساً ولاكن نرى لليمنيين حتى فى هاته الناحية من حياتهم اياما كأيام ابن ذى يزن لاتقل عن ايام غيرهم من العرب سكان الصحارى والقفار.

وهكذا تظهر البلاد اليمنية فى صفة خاصة ذهبت ببعض السواحين الى تقسيم بلاد العرب الى شعبين اليمانيون شعب وغيرهم من العرب شعب آخر الا ان هذا التقسيم عند امعان النظر لا ينطبق على الواقع . فليس اليمن فى الحقيقة الا قطعة من ارض واحدة وليس تاريخه الا جزءاً من تاريخ واحد وما وفدت العرب على سيف ابن ذى يزن بعد قتله الحبشة الا لفرد منهم خدم الجزيرة جملة والعرب اجمعين اذ يقول له عبد المطلب بن هاشم : أنت ابيت اللعن رأس العرب وربيعها الذى به تخصب وملكها الذى به تنقاد وعمودها الذى عليه العماد ومعقلها الذى يلجأ اليه العباد سلفك خير سلف وأنت لنا بعدهم خير خلف ولن يهلك من انت خلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته اشخصنا اليك الذى انهجك لكف الكرب الذى اصابنا. وانما الطائفتان فرعان فقط من شعب وغصنان من شجرة وهو نفس التقسيم الذى نجده فى اللغة التى هى عنوان الوحدة ودليل الجمع. فان فرق اللغويون العربية الى فرع حميرى قحطانى وهو الاصل وفرع عدنانى أو حجازى وهو لسان بنى اسمعيل فليس ثمة من خلاف جوهرى فى روح اللغة وانما هو فرق ثانوى سطحى يخص جانب الفاظ قليلة مستعملة عند حمير دون الحجاز وبالعكس ومن جانب اللهجة على ان اختلاف اللهجات انما يعبر بها عن مجرد تباينهم فى مسائل الابدال واوجه الاعراب وفى مسائل الادغام والنقص والاتمام ونحو ذلك مما هو مسطر فى موضعه ولئن حفظت عن اليمن شنشنتهم ووتمهم المعروفان فقد حفظت عن شتى قبائل العرب عدة اختصاصات كعجعجة قضاعة وغمغمتها وثلثلة بهراء وخفخفة هذيل وعنعنة تميم وكشكشة اسد ووكم ربيعة وغير ذلك . على ان الاسلام رفع التفرقة وجمع القلوب ووحد الاعمال وكتب اليمانيون بفضله فى خدمة الخلفاء المقدسين على صفحات التاريخ سطوراً نيرات ومئاثر خالدات تزرى بما سبق لهم من رفعة وسلف من مجد فلا غرو اذن ان يسعى المفكرون اليوم فى ارجاع الجزيرة الى وحدتها وتجديد عهد ارتفعت به تلك البقاع وعلت به الدنيا وما ذلك على الله بعزيز

*

* *

عاصمة بلاد مثل اليمن لاتكون بالطبع الا من أهم العواصم وهو الواقع نفسه فى شأن صنعاء التى تمثل فى طبيعتها وصنائعها وهندسة بناءاتها القطر الذى تنسب اليه على الصفة التى ذكرناها كما تمثله فى اخلاق اهلها . ويسمون بالصنعانيين بزيادة النون خلافا للقياس كما يقال فى بهراء بهرانى وعلى هذه النسبة السماعية درج الحريرى فى مقاماته الصنعانية . وهم من اكثر الناس سعياً فى اصلاح حال الجزيرة والعمل لترقيتها وفاء بواجبات التاريخ وعزة الاجداد .

قيل سميت بصنعاء لانها أول مدينة صنعت بعد الطوفان وقيل سبب ذلك - وقد كان اسمها القديم اوزال - ان الحبشة لما ارادوا فتحها وناوءوها الحرب وجدوها حصينة فقالوا صنعاء أى محكمة الصنع . قال ياقوت وقد بنى بصنعاء ابرهة ابن سبا الملك الحبشة كنيسة سماها جليز (؟ Eglise) موه جدرانها بالذهب وحيطانها بالفضة ورصعها بالجواهر وكان

غرضه ان يعدل العرب عن الحج الى الكعبة فاتاها احد الاعراب من قبيلة كنانة فانتهك حرمتها فكان ذلك سبب اغارة الحبشة على مكة

صنائعها من اجل الصنائع - ولعل الباحثين يجدون من هذا الباب سببا من أسباب تسميتها - خصوصاً فى النسيج المتقن والحياكة المنمقة والاردية المعلمة والاقمشة المطرزة بالحرير وغير ذلك من آثار أيدى أهاليها اشتهرت حتى عند صغار الطلبة الذين يرشدهم ابن مالك بالبسن من زاركم نسج اليمن ارشاداً ليس عليه حرج فيه

وأما صفتها فنتكل فيها - بعد اتكالنا على ابن مالك هذا فى نسجها - على الرحالة أمين الريحانى اذ يقول واصفاً: فيها الهواء اعذب من الماء والماء أصفى من السماء والسماء اجمل من حلم الشعراء وفيها البرد وقدعلت تسعة آلاف قدم عن سطح البحر يستحيل من قربها الخط الاستواء دفاء وفيها البساتين والكروم والسواقى والطواحين . . . . ويقول فى نفس المدينة : صنعاء مدينة عربية صافية روحا وشكلا أسواقها مثل أسواق جدة غير مرصوفة ولكنها أوسع وأنظف. أما بيوتها العالية وبعضها ست طبقات فبناؤها اكثر اتقانا وأجمل هندسة . لان الاسلوب العربى فيها لا يشوبه شيء اجنبي هندى او اروبى وهى مبنية بالحجارة البيضاء والسوداء وبعضها بالآجر والبعض باللبن وبين كل طابق وآخر زنار من الجص الابيض المنقوش اشكالا هندسية . وفوق كل نافذة كوة فيها لوح من المرمر يكاد يكون كالزجاج رقيقاً شفافا ولكنه امتن من الزجاج واجمل وهناك فى الطابق الاخير لاكثر البيوت غرفة واحدة هى غالبا مطلقة من جهاتها الاربع تشرف على المدينة . وتدعى المنظرة يستخدمها الناس للاستقبال والقيلولة . فيفرشونها بالطنافس والوسائد والمساند . ومنهم من يستعمل الزجاج الملرز فى النوافذ فيقسمونه اشكالا هندسية ويلونونه بالاحمر والاصفر والاخضر والازرق أى الاصباغ الاربعة التى يصنعونها فى اليمن فيستخرجونها من النبات.

وصف يشبه وصف صنعاء لرحالة فرنسى يعرفه القراء م . روبير مونتانى اليوم رئيس المعهد العلمى بدمشق فى مقالة نشرتها مجلة التصاوير الفرنسوية التى أخذنا منها الصورة المنشورة هنا ومن وصفه : ان عاصمة الامام يحيى من حيث منظرها العام ومن حيث كبرها وعدد ديارها ومساجدها تتقمص الوصف الخاص لمدينه فاس تلك الحاضرة التى دون غيرها من مدن المغرب الاقصى لا زالت حافظة على أوضاعها واشكالها العربية العتيقة ولكن هذا الشبه المتبادر الى فكر الراءى فى اول وهلة لا يلبث ان يستحيل الى فرق واضح بمجرد الدخول الى عقر المدينة. لان صنعاء خلافا للعاصمة الادريسية تحتوى على ساحات واسعة وشوارع رحبة تحوطها ديار من خمس وست طبقات ناطحات للسحاب وطرق مستقيمة . والكل يعطى لصنعاء صفة لا توجد لغيرها من مدن الاسلام

وإن كنا نعجب فى القرن العشرين للعصر الميكانيكى من وجود ناطحات السحاب فى نيورك بلاد العجائب وقد ذللت لهم الصعوبات العلمية وفرة آلات النقل والرفع والجذب والبناء من المخترعات المدهشة فالعجب احرى من وجود المنازل العالية فى بلاد اليمن للقرون الغابرة حيث لا شيء من تلك المخترعات وانما صنعى الايدى وحذاق الاعمال وبراعة العرب م